السنة الثالثة عشرة من النبوة

وفيها خرج رسول الله ﷺ إلى الموسم على ميعاد الأوس والخرج، فلقيه جماعة، فواعدهم العقبة من أوسط أيام التشريق.

قال ابن إسحاق: حدثني معبد بن كعب بن مالك بن أبي بن كعب أخو بني سلمة، أن أخاه عبدالله بن كعب حدثه، أن أباه كعب بن مالك حدثه، وكان ممن شهد العقبة، وبايع رسول الله ﷺ، قال:

خرجنا إلى الحج وواعدنا رسول الله ﷺ بالعقبة، فلما فرغنا من الحج، خرجنا لميعاد رسول الله ﷺ ومعنا عبدالله بن عمرو بن حَرَام أبو جابر بن عبدالله، وهو مشرك، وكنا نكاتمه الأمر ومن معنا من المشركين، فقلنا له: يا أبا جابر، إنك سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن يكون حظُّنا الجنة وحظك النار فقال: وما ذاك؟ فأخبرناه الخبر وعرضنا عليه الإسلام، فأسلم، وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ، ولما مضى ثُلُثُ الليل خرجنا من رحالنا نتسلل تسلل القطا مُسْتَخفين، وكان معنا ابن أُبَيٍّ في الرِّحال، ولا يعلم بما نحن فيه، وأمَرَهم رسول الله ﷺ أن لا يُنَبِّهوا نائماً ولا ينتظروا غائباً، فاجتمعوا عند الشعب ليلة النَّفْر الأول أوسط أيام التشريق ـ وفي رواية: فوافَوْه في الشعب الأيمن إذا انحدرْتَ مِن منى أسفل العقبة حيث المسجد اليوم ـ، وقد سبقهم رسول الله ﷺ ومعه عمه العباس بن عبد المطلب وهو على دين قومه، وإنما أراد أن يستوثق لابن أخيه، فتكلم العباس وقال: يا معاشر الخزرج ـ وكانت العرب تسمي هذا الحي من الأنصار الخزرج، سواء كان خزرجياً أو أوسياً ـ، إن محمداً ابن أخي، وقد علمتم مكانته منا، وهو مِنّا حيثُ قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على ديننا أو على مثل رأينا، وهو في عِزٍّ ومَنَعَةٍ في بلده، وقد أَبى إلاّ الانقطاع إليكم، واللّحاقَ بكم، فإن كنتم تَفُون له بما وعدتموه أو دعوتموه إليه، فمانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحمَّلتم له، وإن كنتم خاذلوه بعد الخروج معكم، ومسلموه إلى أعدائه، فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده وأهله.

فتكلم البراء بن معرور وقال: يا رسول الله، خذ لربك ولنفسك ما أحببت، فقال رسول الله ﷺ: «أُبايِعُكُم على أن تَمنعُوني ممَّا تَمنَعُون منه أَبناءَكُم ونُفوسكُم ونِساءَكُم». فقال البراء ـ وقد أخذ بيد رسول الله ﷺ ـ : والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أُزُرَنا، فبايِعْ يا رسول الله، فنحن أهل الحرب والحَلْقَة ورثناها كابراً عن كابر، فاعترضه أبو الهيثم بن التيهان حليفُ بني عبد الأشهل، وقال: إن بيننا وبين الناس حِبالاً، ونحن قاطعوها، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتَدَعَنا، فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «لا والله، بلِ الدَّمَ الدَّمَ، والهَدْمَ الهَدمَ، أُحاربُ من حارَبتُم، وأُسَالِمُ مَن سَالَمتُم». فاعترضهم العباس بن عُبادة بن نَضْلَة الأنصاري وقال: يا معشر الخزرج، أتدرون على ما تبايعون هذا الرجل؟ إنكم إنما تبايعونه على حرب الأحمر والأبيض والأسود من الناس، فإن كنتم إن أنهكتكم مصيبة، ترجعون عنه وتسلمونه، فمن الآن وهو والله [إن فعلتم] خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه من قتل الأشراف، وهلاك الأموال، فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة. فقالوا بأجمعهم: بل نأخذه على ما ذكرت، ثم قال: يارسول الله، فمالنا إن وفينا؟ فقال: «لكُمُ الجَنَّة». فقال: ابسط يدك، فبايعوه[1].

قال ابن عباس: وأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾[التوبة: ١١١] الآية، فقالوا: ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل[2].

وأول من بايعه: أسعد بن زرارة، وقيل: البراء بن مَعرور، وقيل: أبو الهيثم بن التيهان، ثم كثر اللَّغَطُ، فقال العباس: على رِسْلكم، فإن علينا عيوناً، ثم قال رسول الله ﷺ: نَقِّبوا اثني عشر نقيباً يكونوا كُفلاء على قومهم، كما كفلت الحواريون لعيسى بن مريم ـ وفي رواية: أن موسى اتخذ من قومه اثني عشر نقيباً فلا يجدنَّ أحدُكم في نفسه أن يُؤخَذَ غيره ـ فكان نقيب بني النجار: أسعد بن زرارة، ونقيب بني سَلِمة: البراء بن معرور وعبدالله بن عمرو بن حَرَام أبا جابر، ونقيب بني ساعدة: سَعْد بن عبادة والمنذرَ

(١) انظر «السيرة» لابن هشام ٢/ ٦١-٦٧ ، و«الطبقات الكبرى» ١/ ١٨٨ ، وهي العقبة الآخرة.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٤/ ٤٩٩ من حديث عبدالله بن رواحة، وانظر «أسباب النزول» للواحدي ص٢٦٣ ، ولم نقف عليه من حديث ابن عباس.

ابنَ عمرو، ونقيبُ بني زريق: رافع بن مالك بن العَجْلان، ونقيبُ بني الحارث بن الخزرج: عبد الله بن رواحة وسعد بن الربيع، ونقيبُ القواقل: عبادة بن الصامت، ونقيبُ الأوس: أُسَيد بن حُضَيْر وأبو الهيثم بن التَّيهان، ونقيب بني عوف: سعد بن خيثمة[1].

قال مقاتل: وإنما قصدَ رسول الله ﷺ أن يضبطهم بالنقباء كما فعل موسى عليه السلام ببني إسرائيل في قوله تعالى: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾[المائدة: ١٢] الآية.

ولما بايع القوم صرخ الشيطان من رأس العقبة بأبعد صوت سُمِع قط: يا أهْلَ الأخاشب، هل لكم في مُذَمَّم والصُّباة معه، فإنهم قد اجتمعوا على حربكم، فقال رسول الله ﷺ: «ندعو الله يا أزَبَّ العقبة[2]، ما تقول؟ والله لأَتفرَّغَنَّ لك» ثم قال رسول الله ﷺ: «ارْفَضُّوا إلى رِحَالِكُم». فقال له العباس بن عُبادة بن نَضلة: يا رسول الله، إن شئت مِلْنا بأسيافنا على أهل منى ـ وكانوا مئة رجل ـ، وإنما لقي رسولَ الله ﷺ منهم سبعون، فقال رسول الله ﷺ: «لا حاجة لي بذلك، ارجعوا». فانصرفوا إلى رحالهم.

ولما أصبح القوم غدا عليهم جِلَّةُ قريش وأشرافُهم وقالوا: قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا من أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم. وانبعث رجال من الأنصار ـ لم يحضروا البيعة ـ يحلفون لقريش بالله ماكان من هذا شيء، والذين شهدوا العقبة ينظر بعضهم إلى بعض، وقال عبدالله بن أُبَيٍّ بن سلول ـ وكان في الرحال ولم يشهد البيعة ـ: ما كان لقومي أن يَفْتاتوا عليَّ بمثل هذا حتى يُؤامِروني، وإن هذا الأمر جَسيمٌ.

ثم تفرقوا، ولما انفصلت الأنصار عن منى، تقدم البراء بن معرور إلى بطن يَأْجَج وتلاحق به أصحابه المسلمون، وصح عند قريش الحديث، فخرجوا في طلبهم، فأدركوا سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو بالحاجر وكلاهما نقيبان، فأما المنذر فإنه

---

(١) انظر «السيرة» لابن هشام ٢/ ٦٥ ، و«الطبقات الكبرى» ١/ ١٨٩ ، و«دلائل النبوة» ٢/ ٤٤٢-٤٤٩ .

(٢) في النسخ: «الكعبة» والمثبت من المصادر، انظر الحاشية السابقة.

أَعْجَز القومَ ومضى، وأما سعد فقالوا له: أنت على دين محمد؟ قال: نعم. فربطوا يديه إلى عنقه بِنِسْع رَحْله، وعادوا به إلى مكة يضربونه ويسحبونه بشعره، وكان ذا جُمَّةٍ، فقال له رجل: ويحك، أما بينك وبين أحد جوار؟ قال: بلى كنت أجير لجبير بن مُطْعم والحارث بن أمية بن عبد شمس، قال: فاهتف باسمهما، فصاح بهما عند الكعبة فجاءا فخلَّصاه، ولَكَم سعداً سهيلُ بن عمرو لكمةً شديدة، وكان الذي أسر سعداً ضرار بن الخطاب الفِهْري، وكان أشدَّ الكفار على رسول الله ﷺ، وقال: [من الطويل]

تَداركتُ سعداً عَنْوةً فأسَرتُه ... وكان شِفائي لو تَداركتُ مُنْذِرا
ولو نِلْتُه طُلَّتْ دماءُ جراحِه ... أحقُّ دماءٍ أن تُطَلَّ وتُهْدرا[1]

فأجابه حسان بن ثابت[2]: [من الطويل]

فخرتَ بسعدِ الخير حين أسرتَه ... وقلتَ شِفائي لو تداركتُ منذِرا
وإن امرءاً يَهْدي القصائدَ نحونا ... كمستبضعٍ تمراً إلى أهل خيبرا
فلا تك كالشاةِ التي كان حَتْفُها ... بحفر ذراعيها فلم ترض مَحْفَرا

ولما خلص سعد، لحق بالأنصار وكانوا قد عزموا على أن يَكُرُّوا على أهل مكة، فتوجهوا إلى المدينة[3].

وبين العقبة والهجرة ثلاثة أشهر.

* * *

وفيها: أَمر رسول الله ﷺ أصحابَه بالهجرة إلى المدينة.

قالت عائشة رضي الله عنها: لما حَدَرَ رسول الله ﷺ من منى وقد انصرف الأنصار من عنده، وطابت نفسه بأن جعل الله له قوة ومنعة وقوماً هم أهل حرب ونجدة، وجعلَ البلاءُ يشتد على مَن بمكة من المسلمين لِما علم أهل مكة من شدة بأس الخزرج، فضيَّقوا

(١) البيتان في «السيرة» لابن هشام ٢/ ٦٩-٧٠، ورواية الشطر الأخير عنده: وكان حرياً أن يهان ويهدرا، وهما في «أنساب الأشراف» ١/ ٢٩٥ كما عند المصنف.

(٢) الأبيات في «أنساب الأشراف» ١/ ٢٩٥ ، و السيرة ١/ ٤٥١.

(٣) «السيرة» لابن هشام ٢/ ٦٨-٧٠ ، و«الطبقات الكبرى» ١/ ١٩٠ ، و«مسند أحمد» (١٥٧٩٨)، و«تاريخ الطبري» ٢/ ٣٦٧-٣٦٨، و«المنتظم» ٣/ ٤٢ .

عليهم، وعبثوا بهم، ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالونه قبل ذلك، فشكا أصحاب رسول الله ﷺ إليه واستأذنوه، فقال: «إنه لم يُؤْذَن لي في ذلك بَعْدُ»، ثم إنه خرج عليهم بعد ذلك، فقال: «قد أُريتُ دَار هِجرَتِكُم وهي سَبْخَةٌ ذاتُ نَخْل بين لابَتَيْن و [لو]كانت السراة أرض نَخْل وسَبَخ لقلت: هي هي» ثم مكث أياماً وخرج إليهم مسروراً وقال: «قد أُرِيتُ دارَ هِجرَتِكُم، وهي يَثْرِبُ، فَمن أرادَ الخُروجَ فَلْيَخرج» فجعل القوم يتجهزون ويترافقون ويتسللون ويتواسَوْن ويخفون خروجهم[١].

وأول من قدم المدينة بعد مصعب بن عمير من فقراء المهاجرين: ابن أم مَكتوم[٢]، وأبو سلمة بن عبد الأسد بعده، وقيل: أول من قدم مهاجراً: أبو سلمة قبل العقبة الأولى بسنة، وكان قد هاجر إلى الحبشة، ثم قدم مكة وهاجر منها إلى المدينة[٣].

وكانت أمُّ سلمة رضي الله عنها أولَ امرأة وردت المدينة، وقيل: أولُ ظَعينة قدمت المدينة: ليلى بنت أبي حَثْمة بن عدي زوجة عامر بن ربيعة العنزي[٤].

ولما قدموا المدينة على الأنصار آوَوْهم وواسَوْهم، وسالمٌ مولى أبي حُذيفة يؤم بهم في قباء، ثم قدم المدينة: بلالٌ وسَعْدٌ وعُمَرُ وعمار رضي الله عنهم.

وتتابع الناس فلم يبق بمكة من بني أسد بن خزيمة أحد حتى أغلقت أبوابهم، وأبواب بني البُكَيْر، وأبواب بني مَظعون.

وقدم جماعة من الأنصار الذين بايعوا رسول الله ﷺ عند العقبة البيعة الثانيةَ إلى مكة، ثم هاجروا منها إلى المدينة، فهم مهاجرون أنصاريون منهم: ذكوان بن عبد قيس، وعقبة بن وهب، والعباس بن عبادة، وزياد بن لبيد.

وخرج من مكة [مَنْ فيها] من المسلمين، ولم يبق فيها سوى رسول الله ﷺ، وأبي

---

(١) «الطبقات الكبرى» ١/ ١٩٢ ، وهو عند البخاري (٢٢٩٧).

(٢) أخرج البخاري (٣٩٢٥) عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: أول من قدم علينا مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم، وكانوا يقرؤون الناس.

(٣) «سيرة» ابن هشام ٢/ ٨٠ . وجمع ابن حجر في الفتح ٧/ ٦٧٧ بين القولين: بأن أبا سلمة خرج لا لقصد الإقامة بالمدينة بل فراراً من المشركين، بخلاف مصعب بن عمير فإنه خرج إليها للإقامة بها وتعليم من أسلم من أهلها بأمر النبي ﷺ، فلكُلٍّ أولية من جهة.

(٤) انظر «الطبقات الكبرى» ١/ ١٩٢ ، و«الأوائل» لابن أبي عاصم ص٧٣ .

بكر وعمر وعلي ﷺ[١]. فهاجر عمر ﷺ قبلهم في قول البعض.

وقد روى الهيثم بن عدي عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال: ما علمت أحداً من المهاجرين هاجر إلا مختفياً غير عمر بن الخطاب ﷺ، فإنه تقلد سيفه، وتنكَّبَ قوسه، وانتضى في يده أسهماً، ومضى نحو البيت والملأ من قريش بفناء الكعبة، فطاف بها سبعاً، ثم أتى المقام فصلى عنده ركعتين، ودار على المجالس والحِلَقِ واحداً واحداً يقول: شاهت الوجوه لا يُرْغِمُ الله إلا هذه المعاطس، من أراد أن يوتم ولده، أو يرمّل زوجته، أو تثكله أمه، فليلحقني ببطحاء مكة، أو بوادي مكة، فإني مهاجر إلى الله ورسوله. ثم خرج فركب فرسه، وحمل سلاحه، فما جسر أحدٌ أن يتبعه ثم مضى إلى المدينة[٢].

وأقام رسول الله ﷺ ينتظر أن يُؤْذَنَ له في الهجرة، وكان أبو بكر ـ ﷺ ـ يستأذنه في الهجرة، وهو يقول له: «لا تَعجَلْ لعلَّ الله أن يَجعلَ لك صاحباً»، فطمع أبو بكر أن يكونه[٣].

(١) انظر «سيرة» ابن هشام ٢/ ٧٧ـ٧٩ ، و«الطبقات الكبرى» ١/ ١٩٣ ، وليس فيها ذكر عمر.

(٢) انظر «تاريخ ابن عساكر» ٤٤/ ٥١ـ٥٢ .

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» ٢٢/ (٤٦٢) من حديث هشام بن العاص بن وائل السهمي. وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٦/ ٦٢ وقال: وفيه عبد الرحمن بن بشير الدمشقي، ضعفه أبو حاتم. وله شاهد عند البخاري (٢٢٩٧) من حديث عائشة ﷺ.